ألقاب السلطان العثماني:

بين الهيبة المتخيّلة والشرعية المفقودة

اشــتهر سلاطين بني عثمــان باتخاذ ألقاب تشــريفية مطوّلة، تُحاكي حالة العظمة التي أرادوا الظهور بها أمام شعوبهم والعالم، مستلهمين ذلك من إرث الفرس والتتر في إضفاء قداسة رمزية على الحكم. ويُبــرز المؤرخ إبراهيم بــك حليم في كتابه التحفة الحليمية مدى هذا التكلّف، مســجّلًا أسماء السلاطيــن بتفصيــل يشــي بهــوس الانتمــاء والتضخيم، كما في نســب عثمان الأول: "السلطان عثمان خان الغازي بن ساوجي بك بن أرطغرل بك بن سليمان شاه بك بن فيا ألب"، وهو نسب يتقاطع مع الإرث الفارســي الآســيوي مــن حيــث التمديــد والتقديس.

> تلقبوا بأمراء الحج ولم يحجوا.

ويُعلّق حليم بأن النســب بعد "فيا ألب" غير موثوق، ثم يذكر أن ألقابهم شملت لقب "قابي خان"، ومعناه: الحاكم أو السيد، وهو تعبير ذو جذر إيراني (hva-kama) يعني "الحاكم الذاتي". وبذلك، تكرّست في الدولة العثمانية ثقافة الصورة الرمزية للسلطان، حتى غدا التخاطب الرسمي أو الشعبي مع السلطان يستلزم مقدمات من الألقاب التشويقية التي تمهّد لهالة الهيبة والقداسة.

وفي محاولة للربط التاريخي بين النسب والقدر، يذكر حليم أن ولادة عثمان الأول تزامنت مع سقوط الخلافة العباسية، وكأنها إشارة ربانية – على حد تعبيره – لحلول الأسرة العثمانية محلها، رغم غياب التوثيق لتاريخ الميلاد.

من مراد الأول إلى ســليم الأول، تتضاعف الألقاب التي يحملها كل ســلطان لتغدو جزءًا من أدائه السياسي والديني، فنقرأ مثلًا:

- **مراد الأول: الملك العادل، غياث الدنيا والدين، أبو الفتح.**
- **بايزيد الأول: يلدرم (الصاعقة)، صاعقة الإسلام، جلال الدين.**
- **مراد الثاني: خوجة سلطان، غازي، سياج الإسلام.**
- **محمد الفاتح: صاحب النبوءة، أبو المعالي، الفاتح المنتظر.**
- **بايزيد الثاني: الملك الولي، ضياء الدين، عون الغزاة.**
- **سليم الأول: ياووز (القاطع)، ظهير الدين، غياث السلطنة.**

هذه الألقاب ليســت مجــرد تكريم، بل هي بنــاء رمزي يعكس رغبــة العثمانيين في توطيد شــرعيتهم، وتقديم أنفسهم حماةً للإسلام، في ظل تضخيم دعائي يفوق الأثر الحقيقي لكثير منهم. فمــثلًا، رغم ألقاب بايزيد الثاني المتدينة، انتهت حياته في دروشــة وعزلة، وســليم الأول، رغم ألقابه الإمبراطورية، كان ناقلًا للحرفيين من مصر والشام إلى إسطنبول، في ما يُشبه السلب الثقافي.

أما ســليمان القانونــي، فإلى جانب التشــريعات، حمــل ألقابًا مثل "المحتشــم العظيم" و"الشــهيد"، رغم أن ســيرته حملت تناقضات كثيرة داخليًا وخارجيًا. وأحمــد الأول لُقّب بـ "صاحب البخت"، بينما نُعت عبد العزيز بـ "بخت سيز"، أي قليل الحظ. هذه التناقضات تُظهر كيف أن الألقاب كانت منفصلة عن الواقع.

ويُشــار إلى أن بعض السلاطين، كـ لاله دوري پادشاه، اختاروا التقاعد في هدوء، كما قال عند تنازلــه عن الحكم: "إني لا أحب نزول قطرة من الدم في نظير مــا بقي لي من الحياة"، بعد أن أنهكته الفتن والمؤامرات.

ولم يكن ذلك كله إلا جزءًا من تراث ســلطاني يقوم على التهويل والتخويف. حتى عبدالحميد الثاني، الذي وصل الحكم بعد إقصاء أخيه مراد، استُخدمت نفس تقاليد المجد السلطاني لإعلانه، مع تجاهل متعمّد لأي نقد. يقول صاحب التحفة الحليمية: "جلس للســلطنة الوارث الشرعي (شوكتلو مهابتلو) ولي النعمة الســلطان عبدالحميد خان الثاني". أما اللقــب الكامل للسلاطين العثمانيين خلال أوج مجدهم، فهو أطول ألقاب الملوك في التاريخ تقريبًا، ويتضمن عبارات مثل:

- **ظلّ الله في الأرضين**
- **سلطان البحرين**
- **أمير الحج (رغم عدم قيام أيٍّ منهم بالحج)**
- **قيصر الروم**

ويتبع ذلك قائمة لا تنتهي من المدن والبلدان التي ادّعوا السيادة عليها، من القسطنطينية ودمشق إلى بلغراد والبوسنة وكُردستان وتونس. كل ذلك يُظهر كيف أن الألقاب في الدولة العثمانية لم تكن مجرد شرف، بل وسيلة سياســية ودينية لتكريس حكم يفتقر أحيانًا إلى الفعل، لكنه يفيض في الوصف.

المراجع:

1- إبراهيــم بك حليــم، التحفــة الحليمية فــي تاريخ الدولــة العثمانيــة، ترجمة: نجوى عباس (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2004).
2- عبدالعزيــز الشــناوي، الدولــة العثمانية دولة مفتــرى عليها (القاهــرة: مكتبة الأنجلو، 1989).
3- محمد فريــد بك، تاريخ الدولــة العليّــة العثمانية، تحقيق: إحســان حقي، ط10 (القاهرة: دار النفائس، 2006).